كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف، في تقديم كتاب الأستاذ جورج خديج "بطريركيّة أنطاكية والكنيسة المارونيّة"، يوم الثلاثاء الواقع فيه ٢٠ كانون الثاني (يناير)، ٢٠١٥ في قاعة محاضرات فرانسوا باسيل في حرم الإبتكار والرياضة (CIS).

لقد استهلّيتُ بحماس مقدّمة كتاب البروفسور العزيز خديج مُعرِبًا عن إعجابي به كدراسة مهمّة حول تاريخ الموارنة ونشاطهم الحيويّ من خلال كنيستهم، وها أنا اليوم في هذه الجلسة – جلسة توقيع الكتاب – أحتفظ بالرأي نفسه، مؤكّدًا أنّها لفكرةٌ سديدة راودت الأستاذ خديج ليستخرج كنزًا من كنوزه الثمينة بكلّ ما يحتويه من قيمة معرفيّة ومستقبليّة. ونحن بهذا نشهد لولادة مؤلَّف قيّم حول مادّة هي على القدر نفسه من القيمة، فقد كان لا بدّ من القيام بهذه المبادرة لنشر مخطوط يتميّز بسعة المعلومات وكان مطموسًا في غياهب النسيان. في الواقع، أصل كتاب « ***Le Patriarcat d'Antioche et l'Église Maronite*** » "بطريركية أنطاكية والكنيسة المارونيّة (من الانشقاقات حتّى الاتّحادات)" جدير بالملاحظة : إنّها أطروحة قُدِّمت في العام ١٩٧١ في كليّة الحقوق والعلوم الإقتصاديّة في جامعة "ليون" للحصول على شهادة الدكتوراه في الحقوق. أراد الأستاذ خديج، لدى اختياره لهذا الموضوع، أن يشارك قلق العديد من معاصريه الذين عاينوا تجزئة الكنائس الشرقيّة وضعفها في أعقاب استمرار الانقسام. فقد قام المؤلِّف بالبحث عن نَفَسٍ جديد بغية تعزيز "علامات الشراكة" التي يمكن أن توفّر فرصة للتقارب المرغوب جدًّا بين الكنائس. ولكن في الوقت نفسه، عاين وحدة الكنيسة المارونيّة وقوّتها التي بنت عبر القرون وجودًا محدّدًا للغاية وذات أهميّة في جماعات المدارس والكنائس المحليّة، ليس في الشرق الأوسط فحسب ولكن على المستوى العالميّ أيضًا، فأراد بذلك أن يتقصّى أصول ونموّ البنى القويّة للكنيسة المارونيّة والتحقيق في مختلف العوامل والعناصر القانونيّة والدينيّة والأخلاقيّة الخاصّة والمكوّنة لشخصيّة الجماعة الكنسيّة المارونيّة، حتّى سينودس اللويزة في العام ١٧٣٦ ونتائجه. وقد فكّر بنشر نصّين رئيسيّين وموجِّهين تاريخيّين للأدب الكنسيّ الماروني، إلى جانب الأطروحة، هو أوّلاً **كتاب الهدى**، أيّ كتاب التوجيه، من القرن الحادي عشر الذي ألّفته ظاهريًّا أو بالأحرى شكّلته سلطة مارونيّة وهو ينقسم إلى قسمين : الأوّل يطغى عليه الطابع اللاهوتيّ والآخر الطابع الأخلاقيّ والقانونيّ، مع العلم أنّ الأمر الذي يثير الإهتمام ويستحقّ

أن يُشار إليه هو أنّ هذا الكتاب تُرجِم من السريانيّة إلى العربيّة في أواخر القرن الحادي عشر بناءً على طلب من أباتي ماروني وهو موجّه إلى المطران الماروني داوود. وكانت أزمة اللّغة السريانيّة قد نشأت في ذلك التاريخ. من الواضح أنّ اليسوعيّين ليسوا هم من يُعتَقَد بأنّهم شجّعوا هذه الترجمة بما أنّهم لم يكن لهم وجود بعد. ولكن هذه علامة على أنّ الكنيسة المارونيّة كانت تشعر بالحاجة إلى ترجمة نصوصها إلى اللّغة العربيّة، كمؤشّر على انفتاحها ولكن أيضًا حرصًا منها على الحفاظ على إيمانها وعلى تقاليدها الدينيّة، وإن في لغة غريبة عنها. النصّ الثاني ليس إلاّ المجموعة الكاملة من المراسيم والقرارات الصادرة عن المجمع اللبنانيّ الشهير أو مجمع اللويزة سنة ١٧٣٦ والذي أدّى بالكنيسة المارونيّة إلى التمسّك بشكلٍ وثيق بالمبادئ التوجيهيّة للمجمع التريدنتي في العام ١٥٤٢ الذي كان الآمر الذي يحثّ على مناهضة التيار الإصلاحيّ البروتستانتيّ الذي انتشر في أوروبا. إنّ إدراج هذين النصّين ضمن مجلّد واحد حيث أطروحة الأستاذ خديج تأتي في تعليق مصرّح هو بمثابة مبادرة تُثري الكتاب بالتأكيد وتجعله بمثابة كتيّب جامعيّ ومرجعًا علميًّا يتوجّب على الباحث أو الطالب في تاريخ الأديان أن يقتنيه.

من الواضح أنّ نصّ الأستاذ جورج خديج يرتبط بتاريخ محدّد في التاريخ وبالتالي، يتوجّب إرفاق هذه الوثيقة بتاريخ كتابتها أو عرضها في العام ١٩٧١، ممّا يعني أنّ فترة أربعين عامًا من الأحداث والتطوّرات وربّما أيضًا بالتقهقرات في العلاقات بين الكنائس غائبة من الكتاب. ومع ذلك، فإنّ سنة ١٩٧١ هي محطّة زمنيّة هامّة ومميّزة، لأنّها تقع بعد عشر سنوات من مجيء البابا يوحنّا الثالث والعشرين (١٩٥٨) وإعلان المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢–١٩٦٥). وتكمن أهميّتها في رؤية الكنيسة الكاثوليكيّة التي تلتزم إلتزامًا كاملاً في مغامرة الحركة المسكونيّة من خلال دعوة مراقبين غير كاثوليكيّين في المجلس وإنشاء أمانة عامّة من أجل وحدة المسيحيّين والتي سوف تصبح، تحت سلطة البابا يوحنّا بولس الثاني، المجلس البابويّ لوحدة المسيحيّين. أصدر المجلس وثائق رئيسيّة للحركة المسكونيّة : *Redintegratio Unitatis* (مرسوم عن الحركة المسكونيّة). في هذا السياق، إلتقى كلٌّ من البابا بولس السادس والبطريرك المسكونيّ أثيناغوراس من القسطنطينيّة في القدس وتمّ رفع الحرمان الكنسيّ بين روما والقسطنطينيّة في العام ١٩٦٥. وفي مجال علاقات الكنائس الشرقيّة

فيما بينها والكنائس الشرقية الأرثوذكسيّة من جميع الاتّجاهات مع الكنيسة الكاثوليكيّة، تكاثرت مبادرات المصالحة وتعزيز الشراكة على الرغم من تباطؤ في الحركة خلال مطلع القرن الحادي والعشرين هذا. في الأوقات الحاليّة، حيث كنائسنا تعاني أزمة وجود بكلّ بساطة، أصبح من الضروري بالنسبة إليها أن تتقارب فيما بينها أكثر من ذي قبل، وأن تسلك أكثر فأكثر طرق التعاون ومدّ الجسور فيما بينها حتّى يعرف الجميع أنّ ما يميّز المسيحيّين هو ببساطة محبّة بعضهم البعض محبّة عميقة، واستعدادهم ليشهدوا لهذه المحبّة حتّى الشهادة.

هذا الكتاب هو بمثابة صرخة أو نداء يتطلّب صدى عميقًا – إن لم يكن أصداء – على الساحة الكنسيّة في الشرق الأوسط بغية إصلاح كنسيّ حقيقيّ لا بدّ له أن يعيد النظر في هيكليّة إدارة الجماعة. أحد هذه الأصداء هو المجمع البطريركي الماروني الذي عُقِد بين ٢٠٠٣ و ٢٠٠٦ والذي شكّل حدثًا هامًّا في تاريخ الموارنة، من ناحية التجذير والتعميق والتجديد والذي تطلّب إصلاحات وخطوات على صعيد إصلاح الكنيسة كجماعة دينيّة مؤمنة وليس كطائفة تسعى أن تتموضع وتحصل على أسهم في بلدٍ يُعتبر كغنيمة من غنائم الحرب التي يجب أن تُوزّع بين أفراد كتيبة. ومع ذلك، أجرؤ على طرح الفرضيّة التالية : صحيح أنّ المشاكل ذات الطابع الكنسيّ الصرف لا يمكن أن تكون – جزئيًّا على الأقلّ – منفصلة عن القضايا ذات الطابع الاجتماعيّ والسياسيّ، لكنّ الجماعة الكنسيّة هي رهينة لصراع مرير مدبّر من قبل العلمانيين ورجال الدين، صراعٌ له جذور تاريخيّة قديمة بغية تضييق الخناق على السلطة السياسيّة اللبنانيّة وهذا ما يجعل الانقسامات المنظورة وغير المنظورة، بسبب هذا الصراع، تُضعف هذه الجماعة ووجودها. اليوم، يتمّ التلاعب بالجماعة من قِبَل الفيروس السياسيّ، وطالما يتمّ التلاعب بها، ليس لديها الكثير من الأمل للخلاص.

أمّا بالنسبة إلى الإشكاليّة التي طرحها كتاب الأستاذ خديج، فيمكن أن تُصاغ اليوم على النحو التالي : إذا أخذنا بعين الإعتبار الجوّ السائد المناسب للوحدة والذي أوجده المجمع الفاتيكاني الثاني وديناميكيّة الدراسات التي قام بها Congar أو De Lubac، هل يمكن أن نفكّر أنّ نموذج الكنيسة المارونيّة، بهياكلها الخاصّة وتراثها الخاصّ وهرميّتها الخاصّة، يمكن تعميمه على الكنائس الشرقيّة

الأخرى التي ما زالت خارج الانتماء للكرسيّ الرسوليّ ؟ بالنسبة إلى إنشاء الكنائس الشرقيّة الأخرى "الإتّحاديّة" في القرون الماضية، ماذا كان تأثيره على الاتّحاد مع روما ؟ "هل يُعتَبَر إنشاء هذه الكنائس خيانة أو إنذارًا مُسبَقًا للوحدة القادمة ؟

إنطلاقًا من هذه التساؤلات وغيرها، إختار المؤلّف معيارًا يمكن استخدامه كمرجعٍ أساسيّ لتطوير فكرته : إنّه الثقل التاريخيّ واللاهوتيّ الذي مثّلته مدينة أنطاكية كنموذج للوحدة لجميع كنائس الشرق. أنطاكية هي الأصل الذي سوف يتوجّب على التيارات المختلفة أن تتلاقى فيها بمجرّد أنّها معروفة "كمهد للمسيحيّة وككرسيّ بطريركيّ شهير ... وهي لم تنقطع نهائيًّا مع روما."

من هذا الواقع الأخرويّ الدائم للاتّحاد المتمثّل بأنطاكية، تقدّم أطروحة خديج الأوضاع الروحيّة والكنسيّة (الإكليزيولوجيّة) والقانونيّة للكنائس المارونيّة والسريانيّة الكاثوليكيّة والروم الملكيّة. وتُظهِر التطوّرات المختلفة للدراسة آنيّة الإشكالية وآنيّة البيانات التاريخيّة الأساسيّة من أجل فهمٍ أفضل لل"الانشقاقات" ودوافعها العميقة وكذلك الدوافع القائمة على توجّه الكنائس "الإتّحاديّة" نحو الكرسيّ البطرسيّ في روما .

لا تزال "بطريركية أنطاكية والكنيسة المارونيّة" بالنسبة إلى القارئ كتابًا جدّيًّا يمكنه أن يرافق حركة التقارب بين مختلف التيارات الكنسيّة في الشرق، على الرغم من قِدَم بعض الصِيَغ أو التعابير التي تمّ تخطّيها عن طريق تجديدٍ لاهوتيّ دائم. إنّه كتابٌ آنيّ لأنّه مبنيّ على معطيات موضوعيّة وغير عشوائيّة ويحتلّ مكانته ومكانه في مكتبة الشرق والغرب.